معجم الاستاذ فشر

للدكتور بشر فارسي

إنّ لغتنا هيأت از تعوزها للمعاجم ، ففي طليعة آثار العربية المطبوعة امثال «الجمهرة في اللغة» لابن دريد ، و «الصحاح» للجوهري و «اساس البلاغة» للزمخشري و «القاموس» للفيروزبادي و «لسان العرب» و «تاج العروس» ، اذا استثنيت المعجمات المرتبة على المعنى نحو «المخصّص» لابن سيدة . وثمّة ما لا يزال مخطوطاً كجانب من «كتاب العين» للخليل [1] وجزء من «المجمل في اللغة» لابن فارس [2] فضلاً عما عفا اثره مثل «العُباب» للصاغاني (او الصغاني) . وهذه المعاجم النفيسة تثبت الالفاظ والتراكيب الفصيحة ، وربما اتفق لطائفة منها ان تشير الى المصطلح والدخيل والعامي في معترَك الكلام . غير انها سمية المتناوَل الأ على المتفقه في اللغة البصير بأساليب البحث ، ذلك بأن مواد بعضها مرتبة على مخارج الحروف نحو «الجمهرة في اللغة» او بأن المادة الواحدة مدرجة على غير تنسيق نحو «لسان العرب»

***

وقد فطن اهل اللغة للقرن الماضي الى وعورة ملتمس هاتيك المعاجم فراحوا يصنفون ما هو ادنى منالاً ، فكان «محيط المحيط» للبستاني الكبير و «أقرب الموارد» للشرتوني وغيرهما على ما جرى في مطاويها جميعاً من الاوهام والسقطات

وهل اكتسك ان نفراً من المستشرقين نحوا ذلك النحو فسهلوا لابناء جلدتهم مطلب لغتنا ، فكان معجم (لين) Lane الجزيل فائدة ومعجم (فرَيتَج) Freytag وأصحابهم ؟

بيد ان ارتقاء فقه اللغة اخذ بأيدي المشتغلين باللغة الى غير هذا ، ذلك ان الامر آل بهم أن يعدّوا اللغة كياناً يموت ويحيا ويتحوّل ويبعث ، فأقبلوا ينظرون في نشوء اوضاعها وانقراضها على تعاقب الايام كما ينظر علماء الارض في ارتفاع نواحيها وانخفاضها على كرّ الزمان . فللغة تاريخ كما أنّ للامة الواحدة تاريخ

---

(١) نشر الاب انستاس الكرملي جزءاً من «كتاب العين» عدد صفحاته ١٤٤ . فسى ان يمضي نيفه على أتمام نشره (٢) طبع الجزء الاول من «المجمل في اللغة» في مصر (مطبعة السعادة) سنة ١٩١٤

وبهذا الحكم قد سلّم علماء العربية من عهد بعيد : افلا ترى كيف تكلموا على « تَقَل » الالفاظ من معنى الى معنى وعلى « ذهاب » تراكيب و« مجران » أخرى ؟

الاّ ان لغتنا لاتقوم بين كنوزها معجماً تاريخيّاً يرد اللفظة الواحدة الى اصلها في اللغات السامية أو يدفعها الى اخواتها فيهن ، ثم يتحدر باللفظة من الجاهلية حتى عهدنا هذا ، متهلّلاً حيث يتسع المعنى ، مسرعاً حيث يضيق ، وتكاد في انحداره شواهد مستخرجة من امّات التآليف والمراجع العُمَد

أما الفرنجة فما ابطأوا ان أخرجوا لاقوامهم معجمات تلك صفتها. وحسبي ان ادلّك على معجم (ليتريه) Littré الفرنسي والمصنّف حجة بل بنيان !

ذلك عمل ضخم أقبل عليه المستشرق الالماني الاستاذ (فِشر) A. Fischer وهو من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي . وقد سبق لي أن حدثتك عن ذلك العالم عند الكلام على مزايا الفن الالماني[1] ولنجدنّ في الاقبال على مثل ذلك العمل دليلاً آخر على ما سقته لك هنالك :

***

أخبر الاستاذ (فِشر) عالَمَ الاستشراق بعزمه على تصنيف معجم تاريخي للغة العربية سنة ١٩٠٨ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (كوبنهاجن) ثم سنة ١٩١٢ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (أثينه)

ثم انهُ نشر سنة ١٩١٨ في مجلة « الجمعية الالمانية الشرقية » Zeitschrift der deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft (ج ٧٢ ، ص ١٩٩ وما يليها) مقالاً اثبت فيه مبلغ معجمه في ذلك العهد ورغب الى اصحابه من المشتغلين بالمشرقيات ان يمدوه بما تصل اليه ايديهم

***

وبعدُ فقد اتفق لي في الشهر الذي خلا ان اشخص الى مدينة لَيبْتْسِش Leipzig حيث يقيم الاستاذ (فِشر) . فلم يسعني الاّ ان التي الرجل واطارحهُ الحديث في معجمه . فاذا به يخبرني انهُ أتمّه وان الجزازات التي بين يديه تبلغ الف الف وخمسمائة الف . ثم صح لي بالوقوف على جانب مما دوّنهُ تدويناً فاذا الذي أراه يهزّني : يأتي المصنّف باللفظ العربي ويذكر مفاده بالفرنسية والانجليزية ثم يردفهُ بما يجانسهُ في السريانية والاّكدية والعبرية والحميرية وما اليها ، ثم يذكر المعاني المختلفة اذا كان اللفظ « مشتركاً » ، ثم يبسط دقائق كل معنى من حيث موقع اللفظ في سياق الكلام . وحبهات أن يرسل القول ارسالاً ، فهو يحتج في كل موطن بنصوص قيدوها مني على الضبط والوثوق . واستناده الى الشعر الجاهلي فالقرآن فالحديث فتآليف المؤرخين الأولين امثال

(١) انظر « المقتطف » اكتوبر ١٩٣٥ ، ص ٣١٠

الطبري والادباء السابقين كمثل ابن المقفع واشعار المخضرمين والاسلاميين والطبقة الأولى من المولدين . فانك ترى أن ما جمعه لا يعدو القرن الثالث للهجرة

هذا وقد انتقد المصنف بما عمله من قبل اضرابه من علماء اللغة أمن العرب كانوا أم من الاعاجم . الا انه لا يعوّل عليهم من طريق مباشر ، وبيان ذلك أنهُ ان اصاب عند القوم معنى لم يظفر به في المؤلفات التي استند اليها اشار اليهِ ونسبهُ الى صاحبه

***

بَقِيَ ان هنالك مُشكلتين اذنتُ لنفسي ان انصبهما للاستاذ (فِشر) . اما الأولى فتلحق بالاستشهاد ، واما الثانية فترجع الى التدوين نفسه . وقصّة الأولى أن المصنف يستدل بالحديث . ومما كاد يجمع عليهِ الائمة — وفيهم صاحب « الكتاب » والخليل والكسائي — ان اثبات اللغة بكلام النبي مرفوض نظر لأنّ غالب الاحاديث مرويّ بالمعنى ولأن الاعاجم والمولدين سلّطوا عليها ايديهم حتى أنّ الحديث الواحد ليأتي على اوجه شتى من الرواية واللفظ . غير ان نفراً من النحويين واهل اللغة — وفيهم ابن خروف وصاحب « الألفيّة » جوّزوا ذلك ، ولهم حججهم . ولتجدن القضية مبسوطة في مقدمة « خزانة الأدب » للبغدادي . ثم ان المصنّف يقدّم الشعر الجاهلي على القرآن في الاستشهاد ، فان نظرنا الى التعاقب التاريخي ما وجدنا المصنف الا على حق . ولكنّا اصبحنا نعدّ القرآن الحجة المقدّمة — جرياً على طريقة الاستاذ الدكتور طه حسين — فنبذنا ما ذهب اليهِ الأقدمون أن لغة القرآن تصيب شواهدها في الشعر الجاهلي . وأما المشكلة الثانية فنقل الالفاظ السامية دون العربية والالفاظ الافرنجية الى لغتنا ، وهذا الفن معروف عند علماء الغرب بكلمة Transliteration ، وهو مجهول عندنا . الا ان ابن خلدون لمحه بعض الشيء في «مقدمته» ثم جرى الشيخ ابراهيم اليازجي مجراه في مجلته « الضياء » . والحق اننا ما نزال نعاني نقل الالفاظ الاعجمية الى لغتنا على وجهها الصحيح اي دون ان نعمد الى « النحت »

كيفما كان الحال فان تينك المشكلتين لاحقتان بالعَرَض ، ولا عُسْرَ في حلّهما . والتحقيق ان المعجم الذي يعالج الاستاذ (فِشر) تصليفه في المحل الأول من النفاسة . ولعلّ اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي يفطنون الى قدره فيتعاونون على ابرازه ، وعسى ان يواصلوا العمل فاذا فرغوا من الفصيح الصرفوا الى المُصْطَلَحَ والعامي والدخيل ، والمصنفات في هذه الثلاثة الفنون الاخرى — قديمة كانت او حديثة — متداولة بين الناس [1]

(١) سألت الاستاذ (فشر) — وهو العالم باللغات الميتة والحية — قلت : «كيف ترى العربية ؟» قال : «ما اعرف لغة اغنى منها ولا اسلس مقاداً ولا ارق حاشية »